

التحرير والتنوير

استئناف بياني ممهد إليه بقوله (نزل عليك الكتاب بالحق) لأن نفس السامع تتطلع إلى معرفة عاقبة الذين أنكروا هذا التنزيل .

وشمل قوله (الذين كفروا بآيات الله) المشركين واليهود والنصارى في مرتبة واحدة لأن جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن وهو المراد بآيات الله هنا لأنه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنه آية من آيات الله ؛ لأنه معجزة . وعبر عنهم بالوصول إيجازاً ؛ لأن الصلة تجمعهم والإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو قوله (لهم عذاب شديد) . وعطف قوله (والله عزيز ذو انتقام) على قوله (إن الذين كفروا بآيات الله) لأنه من تكملة هذا الاستئناف : لمجيئه مجيء التبيين لشدة عذابهم ؛ إذ هو عذاب عزيز منتقم كقوله (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) .

والعزيز تقدم عند قوله تعالى في سورة البقرة (فاعلموا أن الله عزيز حكيم) . والانتقام : العقاب على الاعتداء بغضب ولذلك قيل للكاره : ناقم . وجيء في هذا الوصف بكلمة (ذو) الدالة على الملك للإشارة إلى أنه انتقام عن اختيار لإقامة مصالح العباد وليس هو تعالى مندفعاً للانتقام بدافع الطبع أو الحق .

(إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء [5]) استئناف يتنزل منزلة البيان لوصف الحي لأن عموم العلم يبين كمال الحياة . وجيء ب (شيء) هنا لأنه من الأسماء العامة .

وقوله (في الأرض ولا في السماء) قصد منه عموم أمكنة الأشياء فالمراد هنا من الأرض الكرة الأرضية : بما فيها من بحار والبر بالسماء جنس السماوات : وهي العوالم المتباعدة عن الأرض . وابتدئ في الذكر بالأرض ليتسنى التدرج في العطف إلى الأبعد في الحكم ؛ لأن أشياء الأرض يعلم كثيراً منها كثير من الناس أما أشياء السماء فلا يعلم أحد بعضها فضلاً عن علم جميعها .

(هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) استئناف ثان يبين شيئاً من معنى القيومية فهو كبذل البعض من الكل وخص من بين شؤون القيومية تصوير البشر لأنه من أعجب مظاهر القدرة ؛ ولأن فيه تعريضا بالرد على النصارى في اعتقادهم إلهية عيسى من أجل أن الله صورته بكيفية غير معتادة فبين لهم أن الكيفيات العارضة للموجودات كلها من صنع الله وتصويره : سواء المعتاد وغير المعتاد .

و (كيف) هنا ليس فيها معنى الاستفهام بل هي دالة على مجرد معنى الكيفية ؛ أي الحالة

فهي هنا مستعملة في أصلها الموضوعية له في اللغة ؛ إذ لا ريب في أن (كيف) مشتملة على حروف مادة الكيفية والتكيف وهو الحالة والهيئة وإن كان الأكثر في الاستعمال أن تكون اسم استفهام وليست (كيف) فعلا ؛ لأنها لا دلالة فيها على الزمان ولا حرفا لاشتمالها على مادة اشتقاق . وقد تجيء (كيف) اسم شرط إذا اتصلت بها ما الزائدة وفي كل ذلك لا تفارقها الدلالة على الحالة ولا يفارقها إيلاء الجملة الفعلية إياها إلا ما شذ من قولهم : كيف أنت . فإذا كانت استفهاما فالجملة بعدها هي المستفهم عنه فتكون معمولة للفعل الذي بعدها ملتزما بتقديمها عليه ؛ لأن للاستفهام الصدارة وإذا جردت عن الاستفهام كان موقعها من الإعراب على حسب ما يطلبه الكلام الواقعة هي فيه من العوامل كسائر الأسماء .

وأما الجملة التي بعدها حينئذ فالأظهر أن تعتبر مضافا إليها اسم كيف ويعتبر كيف من الأسماء الملازمة للإضافة . وجرى في كلام بعض أهل العربية أن فتحة (كيف) فتحة بناء . والأظهر عندي أن فتحة كيف فتحة نصب لزمتهما لأنها دائما متصلة بالفعل فهي معمولة له على الحالية أو نحوها فلملازمة ذلك الفتح إياها أشبهت فتحة البناء .

فكيف في قوله هنا (كيف يشاء) يعرب مفعولا مطلقا (ليصوركم) إذ التقدير : حال تصوير يشاؤها كما قاله ابن هشام في قوله تعالى (كيف فعل ربك) .

وجوز صاحب المغني أن تكون شرطية والجواب محذوف لدلالة قوله (يصوركم) عليه وهو بعيد ؛ لأنها لا تأتي في الشرط إلا مقترنة بما . وأما قول الناس (كيف شاء فعل) فلحن . وكذلك جزم الفعل بعدها قد عد لحنا عند جمهور أئمة العربية .